على الباغي تدور الدوائر

مترجمة عن الإنجليزية

بقلم الأديب أميل فرج

ذكريات ... ذكريات بعيدة تداعب خيالي الآن كما تداعب يد طبيب ماهر جرحاً قارب الشفاء فتؤلمه ألماً محتملا مقبولا ...

هأنذا أرى نفسي يافعاً يسعى في طراءة سنه لكسب عيشه فيصبح عاملا في مصنع كبير يحوى أغلب شبان المدينة ... وكان لترددى على مدرسة ليلية لأتعلم مسك الدفاتر الفضل في رضا المستر فوستر صاحب المصنع عليّ، وبذلك فتح أمامي باب الرقي حتى بلغت درجة رئيس قسم من أقسامه الكبيرة. لقد كان صاحب المصنع رجلا عصامياً عطوفاً فشملني بعطفه، وكلأني بعنايته، فكنت به معجباً وله مخلصاً، وكان بي فخوراً ولى أباً حنوناً ...

لن أنسى هذا الرجل ماحييت، لأنه استطاع بلطفه وحنانه وحبه العجيب لعمله أن يطبع في نفوس موظفيه وخاصة في نفسي ذكرى لاتمحى ... فكان الرجل النبيل العطوف في حياته، والشخص المقدس الخالد في مماته ...

كنت سعيداً مغتبطاً بهذا المنصب الكبير الذى أسند إليّ وبفضله صرت من رجال المدينة البارزين؛ وكان من أسباب سروري وجود دافيد فوستر وحيد هذا الرجل النبيل ... فكان يمر كل يوم منذ التحق بمصنع أبيه ليحييني ويبش في وجهي دون سائر الموظفين فزاد ذلك في تعلقي بعملي وإخلاصي له ...

ماهذا ... ؟! المستر فوستر يموت بعد التحاق ابنه بالمصنع بسنتين ...! الرجل العصامي ذو الأعصاب الفولاذية والعينين البراقتين الصريحتين يختفي فجأة ولم نعد نراه يطوف بعماله المخلصين فيملأ نفوسهم أمناً وهدوءاً واستقراراً، ولم نعد نسمع صوته يتجاوب في فضاء المصنع صداه في رنة متزنة حنون، ولم تعد عينه تطالعنا وترعانا في حنان وعطف عجيبين ... مات فتولى ولده منصبه وسارت السفينة تحمل ركابها كما كانت ... وأخذت المطارق تطرق طرقتها التقليدية المتكررة ... فقد أفل نجم وسرعان ما أشرق نجم ... ولكنه كان نسياً منسياً ...

وفي سبتمبر من السنة التالية تزوجت فتاة أحلامي: ماري جاكسون وكانت تشتغل في المصنع بجانبي. وكانت ماري ولا تزال أجمل فتاة في العالم في نظري، ولم يكن وجهها جميلا فحسب، بل حباها الله نفساً كريمة وقلباً كبيراً ... فتبادلنا ثقة خالصة وحباً جماً جعلانا في أقصى درجات السعادة والهناء ... واشترينا منزلا أنيقاً بنيناه بخيالنا قبل أن نشتريه فصار فردوس غرامنا ومهد أحلامنا، وكانت حديقته الغناء مسرحاً يلهو فوقه طفلنا العزيز

بيتر فيملأها مرحاً وحياة فما أسعدني بالحياة بين هذين القلبين الحبيبين ...

ولم يكد بيتر العزيز يبلغ من العمر سنتين حتى تزوج دافيد فتاة جميلة مرحة وهي ابنة أحد أثرياء جنوب انجلترا . وكانت تبعث في الجو حولها لوناً جميلاً من الصراحة والألفة . فتصادقت هي ومارى ؛ وكانت أحب الساعات إلى هذه السيدة الكريمة تلك الساعة التي تداعب فيها طفلنا الحبيب ، لأنها كانت لا تتمنى شيئاً في الحياة إلا أن يرزقها الله طفلا جميلا . . . وهكذا نالت أمنيتها وولدت طفلة جميلة ظريفة سمتها — أديث — وكانت قرة عين والديها ومعقد آمالهما ...

ومرت السنون متتابعة وأقبلت علينا الحياة بوجهها الضاحك الصبوح ، واستطعنا في هذه المدة أن ندخر مبلغاً لا بأس به ليكون لنا عوناً على تعليم ولدنا بيتر . . . وكنت في ذلك الوقت راغباً في أن أسير أبا لأطفال كثيرين ولكن الله شاء أن يجعل بيتر زهرتنا الوحيدة فقصرنا جهودنا على أن نوفر له السعادة والسيادة ... وشب بيتر صبياً جميلاً رأيت من خلال عينيه الصافيتين معاني الرجولة النبيلة والأخلاق الممتازة . وكذلك نشأت أديث ابنة دافيد فوستر حلوة جميلة كأمها واعتادت الفتاة أن تذهب إلى مدرسة للبنات بجانب مدرسة بيتر — فكانت تمر في طريقها بمنزلنا فتحيينا تحية رقيقة ثم تمضي . وما مضت مدة طويلة حتى أصرت أديث على أن يصحبها بيتر في عربتها كل صباح ويرجع برفقتها كل مساء ... وهكذا كان ... وكنت أنا ومارى نراقب صداقة الطفلين بسرور ونؤمل مايؤمله كل أب وأم عند مايريان تلك الصداقة المتينة تنشأ بين طفلين ذكر وأنثى . وقد كان من الطبيعي أن نرى بيتر في الرابعة عشرة من عمره السعيد لايفارق أديث إلا في وقت المذاكرة والنوم . أتى فخر كان يملأني عند ما أرى الصداقة تزداد متانة بين الطفلين : إنها أمنيتي ... إنها سعادتي ... إنها حلمي اللذيذ ... ولكن الدهشة كادت تصرعني في عصر يوم من أيام الصيف الهادئة عند ما فاجأني دافيد بزيارة في مكتبي وقال بعد عبارات المجاملة المألوفة :

— ألا تعلم ياهيبرن أن ولدك يركب العربة مع ابنتي أديث في ذهابها وإيابها من المدرسة كل يوم ... ؟

فابتسمت وأجبته بهدوء :

— أجل ... لقد عرفت ذلك منذ بضع سنين

— لا أرى أن هذا من اللائق المستحسن ... خير لك أن تمنع ولدك من الركوب مع ابنتي

وبدون انتظار لجواب ... خرج مسرعاً من غرفتي وبقيت أنا ذاهلا بضع دقائق أفكر في لاشيء ، لقد دعت الفتاة بيتر لمرافقتها من تلقاء نفسها فما سر هذا الامتناع ؟ ... لا بد أن يكون دافيد فوستر مخطئاً ظالماً ... لقد صار كل من الطفلين للآخر ضرورة من ضرورات الحياة ...

وعند ما أخبرت مارى بما جرى أجابتني في هدوء ورزانة :

— هذه هي غريزة الأبوة ... لا شيء سوى أن أبا أراد أن يحمي ابنته الوحيدة

فأجبتها ثائراً :

— كلا ! كلا !

ولكنها ابتسمت ابتسامة رزينة وقالت :

— بلى يا عزيزى إنه السلوك الوحيد الذى ينبغى لأب مثل دافيد أن يسلكه

— ولكن كيف تستطيعين منع بيتر ؟ ... كيف تخبرينه عند ما يجئ ... ؟

ولما جاء بيتر فى الساعة الثامنة مساء بعد أن انتهى من واجباته قالت له أمه :

— هناك شىء مهم أريد أن أفضى به اليك يا عزيزى بيتر

— ماذا يا أماه ؟

— مسألة ركوبك العربة مع أديث يا بيتر ... إننى أراها ياعزيزى أنانية منك لأنك تركب كل يوم معها فى حين أن هنالك أطفالاً فى سنها يودون الركوب معها كذلك

— سوف لا أركب معها ثانية ياأماه ، لأنى أرغب فى التأخر فى المدرسة بعد انصرافها لأمارس بعض الألعاب الرياضية وهي لا تمهلنى حتى ألعب ، بل تظل تصرخ فى الخارج حتى أترك ألعابى وأذهب معها . سوف لا أرافقها مرة ثانية ...

— ماأطيب قلبك يابيتر ...

وكذلك أمر دافيد ابنه أن تمتنع من دعوة بيتر للركوب ... وقد امتثل أمره بعد عصيان وتمرد شديدين .

وفى سن السابعة عشرة ترك ولدى المدرسة وعزم على دراسة الطب ... وما كان أشوقنى إلى أن أرى ابنى العزيز طبيباً شهيراً فأكون بذلك قد حققت أعز أمانى فى الحياة .

ولم يكن غريباً أن أرى بيتر الشاب المراهق وأديث الفتاة الناهد يسيران جنباً إلى جنب فى إحدى الغابات للنزهة والنجوى بعيداً عن أعين الرقباء ... وقد أخبرت زوجتى بهذا الحادث ولكننا كسائر الآباء ينشدون الخير لأولادهم ، فابتسمت مارى وأيقنت فى هذه اللحظة أن حرمان أديث من مرافقة بيتر كما تحب شجعها على مرافقته سراً بين الغابات وفى الخلوات ... وعلى كل فقد تركنا الأمور تسير كما يشاء الله ...

* * *

وفى الليلة التالية فوجئت بزيارة دافيد لمنزلى . وما كادت مارى ترى العلامات الغامضة التى ارتسمت على وجهه وبريق الحنق يشع من عينيه القاسيتين حتى توقعت شراً .

وواجهنى دافيد بوجهه المتجهم قائلا :

— ألا تعلم يا هيبرن أن ابنك رآه الناس يخرج مع ابنتى فى كثير من المناسبات إلى الغابات ويخلو بها ... قد تكون يا عزيزى علاقتهما مجرد صداقة بين فتى وفتاة ، ولكن الصداقة فى مثل سنهما لا تحمد عواقبها .

عند ذلك أجبته باقتضاب :

وبعد ؟ !

— يجب أن يبتعد بيتر عن أديث لأنى أخاف عليها كلمات الحب التى تعد فى مثل هذه السن المبكرة جريمة .

لم أجد شيئاً أقوله فى هذه اللحظة ، ومع ذلك تمتمت قائلا :

— سأمنع بيتر من الاختلاط بابنتك يا مستر فوستر ؛ وعلى كل حال سيرحل ابنى عما قريب للالتحاق بكلية الطب . وفى خلال السنوات الست المقبلة لايتمكن بيتر من رؤية ابنتك ...

فأجابنى الرجل ورنة الفرح تهز كيانه :

— هذا حسن ... هذا جميل يا صديقى ... إننى أشكر لك فضلك ...

ثم انصرف الأب بعد أن اطمأن على مستقبل ابنته كجندى غادر ميدان القتال منتصراً مزهوا ...

أى انتصار أيها الرجل القاسى ... ؟! أتفخر أنك حرمت ابنتك الحب وقيدتها بقيد ، وضننت على ابنى أن يتذوق السعادة ؟ أنت مخطئ ... بل مجرم ...

وفى هذه الليلة الثقيلة الحزينة أفضيت إلى بيتر بما جرى بينى وبين المستر فوستر ورجوته أن يكف عن لقاء ابنته .

ظل بيتر صامتاً يفكر ... ثم نظر إلى الأرض نظرة شاردة وقال كأنه يخاطب نفسه :

لقد أحببت أديث يا أبي أكثر من أى فتاة فى العالم ... فهى ... فتاة عجيبة ، لقد رغبت فى أن أكون طبيباً شهيراً فى يوم ما ، وقد عزمت على انتظارى حتى أسجل اسمى بين الأطباء بحروف من جد وجهد ...

ومرت فترة صمت قصيرة قطعتها مارى قائلة :

— حقاً إنها فتاة عجيبة ، فهى من النوع الذى يولد الحرارة والاقدام فى نفوس الشباب ...

— هو كذلك يا أماه ... كنا أصدقاء ، وكنا عازمين على أن نظل أصدقاء حتى ...

ثم أطرق المسكين حزيناً ولكن أمه قالت بسرعة :

— حتى تصير طبيباً شهيراً

فأومأ بيتر موافقاً ثم طوق أمه بذراعيه وقال لها متسائلا :

— لقد فهمت يا أماه . . ! لقد فهمت . . !

— أجل يا ولدى العزيز . . . لقد فهمت . . .

إن العالم جميل ساحر فى عينيك وعينى أديث . . . كلاكما فى شبابكما الغض الجميل يرسم صوراً فاتنة لمستقبل الزاهر ... أجل يا بيتر ، قد تكون الأحلام رائعة يا ولدى ولكنها تكون أروع وأدهش لو تشبعت بالحقيقة . . . إننى أرجو يا ولدى العزيز أن تستمر ذكرياتك عن أديث عزيزة محبوبة كما كانت لأنها ستحفظك نقياً . . . صادقاً . . . شريفاً فى معمعة الحياة وزوابع الشباب . . . احتفظ بذكرياتك . . . واجعلها تعويذتك المقدسة فى إبان نضالك فى الكلية . . وبعد ذلك عندما تبلغ أمنيتك وتصير أديث امرأة ناضجة ستعرفان قيمة هذه الذكريات . . . وتعرفان أنها السلاح الماضي الذى حاربتما به حادثات الدهر ونوائب الزمان . . . ولدى ولدى . . .

ثم ضمته إلى أحضانها وراحت تقبله بحنان وعطف ... وأخيراً قال :

— سوف لا أراها يا أماه ... سأحرم نفسى لقاءها ...

وعند ما تركنا نيام شعرت بالفخر يلمس قلبي فى عذوبة وليونة لأن بيتر أصبح رجلاً نبيلا ... فما أسعدنى بك يا ولدي ! ليباركك الله وليبارك رجولتك

* * *

وبعد شهر قضاه المستر دافيد فى الأجازة خارج المصنع ، وفى يوم رجوعه إلى المدينة من مصيفه استدعانى إلى مكتبه الخاص ، وبعد التحية العادية خاطبنى قائلا :

— إننى أريد أن أدلى اليك بشىء يا هيبرن . وقبل ذلك هل لى أن أسألك عما إذا كنت سعيداً فى وظيفتك فى هذا المصنع ...

فأجبته مندهشاً :

لماذا ... ؟ ! ... أجل يا سيدي فالمصنع منبع رزقي الوحيد فهو كل شيء لي في العالم ... ولن أنسى سعادتي التي وجدتها بين جدرانه

— هذا حسن ... والآن لنعالج متاعبنا . رجلا أمام رجل ... لقد أصرت ابنتي على حب ولدك ، وقد رفضت أن تتعهد بالامتناع عن لقائه

— ولكن ألا ترى أيها الصديق أنها حماسة الشباب المتهور ؟ ...

— لا ... لا أظن ذلك ، فإديث فتاة رزينة عاقلة وخاصة في مثل هذا الأمر ، وقد كانت في خلال نزهتنا الطويلة تبتسم وتتكلم معي بصعوبة شديدة ، وكلما حادثتها أجابتني بأنه ليس من حق أن أنكر عليها حقها في حب الرجل الذي اختارته

— إن ابني لم يكاشفها مطلقاً بحبه

— أجل يا صديقي ... فهي تعتبر العلاقة الآن مجرد صداقة عزيزة ، ولكنها عزمت على أن تتزوجه بمجرد حصوله على أجازة الطب . سأكلك بصراحة يا هيبرن ... ابنك شاب ذكي طموح وهي تحب هذا النوع من الرجال ... ولكن مركزك أقل من مركزي في المدينة ... فمحال أن يتزوجا

— ولكن آمالهما آمال أطفال يا مستر دافيد ستزول بمجرد أن تكبر أديث وتفهم العالم على حقيقته

— أنت مخطئ يا سيدي ... لقد عزمت على إرسال أديث إلى مدرسة داخلية تتكون بعيدة عن ولدك ... ومع ذلك أرجو أن تعمل أنت شيئاً من جانبك ....

فأجبته دون أن أتوقع ما سيحدث :

— بكل سرور يا سيدي ...

— وظف ابنك في مصنعي ودعه ينس فكرة الطب ...

فنظرت اليه نظرة شاردة ولم أستطع أن أفهم ما قال ...

— أوظفه بمصنعك ... ؟ ! ... ولا يدخل كلية الطب ؟ ... إنني متأكد يا مستر دافيد أنك لا تعني ما تقول ...

— إنني أعني ماقلت ... وسيرث ابنك منصبك . سأكون صريحاً معك . يجب أن أعتني بمستقبل ابنتي الوحيدة ... فإذا التحق ابنك بمصنعي لم تعد ابنتي تعتبر ولدك زوجها الكفء . . .

— تريدني أن أضحي بمستقبل ولدي من أجل حب صبياني يتلاشى كما تتلاشى سحب الصيف ... ست سنين يا سيدي كافية لأن تنزع أعمق الحب من قلب المرأة إذا جفاها حبيبها

— إن كلمة أضحي قاسية يا صديقي ... لأنك قد صرت من رجالات المدينة المتقدمين بفضل منصبك هذا ، فلماذا لا يخلفك ابنك ؟

فأجبته ببرود :

— إذا كان حقاً ما تقول ، وسيتمتع ابني بهذه المكانة السامية فلماذا لا توافق على زواجهما ؟ . .

فأجابني ببطء شديد :

— لأن مركزي في المدينة يخالف مركزك

فنظرت إليه باشفاق عليه راثياً له وقلت :

— وهل يعبأ الحب بالفوارق الاجتماعية ؟ ... وهل تظن يا سيدي أنك قدر على أن تسلبهما الحب متى شبا وكبرا . ؟ !

فأجابني بصوت قاس صلب ...

— سأريق دمي في سبيل الحيلولة دون هذا الزواج

عند ذلك تصاعد الدم جارفاً إلى رأسي وامتلأ قلبي بالغيظ ولكني استطعت أن أملك نفسي وأحتفظ بصوتي رائقاً هادئاً كما كان وقلت :

— مستر دافيد ... إنني أحب الرفعة لولدي كما تحب السعادة لابنتك ... إن مستقبله هو رسالتي في الحياة فلابد أن أؤديها بأمانة وإخلاص . . . لقد أراد أن يصير طبيباً فرأيت سعادتي وسعادته في اختياره المهنة التي أرادها ... فالطب هو مهنته التي خلق لها ولن ينجح إلا بممارستها ، فجعله في وظيفتي وهو يريد خدمة المجتمع جريمة هائلة ... محال ياسيدي أن أقترفها ...

عند ذلك نفث دافيد دخان سيجارته بشراهة ثم قال ...

— إذن أنت ترفض أن تدخل ابنك مصنعي .. أليس كذلك ؟ . . . لعلك خلتني منفلا متهوراً عند ما طلبت منك هذا الطلب

— متهور ... ؟ أجل ، فطلب مثل هذا يستند إلى حب صبياني تافه هو عين التهور والقسوة . . .

— حسن . . . ولكني مازلت متمسكا بمطلبي وتستطيع أن تشاور زوجتك وتخبرني عما استقر عليه رأيك . . .

— لا حاجة لي بمشاورة زوجتي . . . فإنها سترفض طلبك كما رفضت

— على كل حال . . . دعني أعرف قرارك في الغد ، وإذا كان بالرفض فأرجو أن أتاقى معه استقالتك

فأجبته بهدوء قائل :

— ولماذا تنتظر للغد . . . ؟ لك أن تعتبرني مستقيلا من الآن ... سيذهب ولدي إلى الكلية ..

ولأول مرة في حياة هذا الرجل القاسي الجبار رأيته يحيد عن جادة الصواب ويخرج عن حد اللياقة إذ قال لي بانفعال :

— إنك رجل غر مغفل لأنك لا تدري من أين يأتيك خبزك . . .

عند ذلك لم أستطع أن أحتمل ... فرميته بنظرة قاسية متكبرة ، ثم مضيت خارجاً من غرفته ساعياً كالآلة الصماء إلى مكتبي حيث شعرت بالتعب والضعف يستوليان على أعصابي وبرغبة ملحة في البكاء . . . واستولت على الأفكار السود فقلت في نفسي

الرجل الذي طوقني بعطفه وإحسانه شاباً ورعاني بحنانه ورضاه رجلا يطردني ولده الآن ! كأن ذلك التاريخ الجميل وتلك الذكريات العذبة لم تستطع أن تحمله على أن يحترم شيخوختي ويذكر صادق خدماتي لأبيه . . .

ولم يكن من السهل على رجل مثلي مضى أمام مكتبه أجمل أيام شبابه ورجولته أن يترك ذلك المكتب العزيز إلى الأبد . . وقد كانت الساعة السادسة مساء عند ما خرجت حزيناً تاركا ورائي مجال الشباب ومرتع الرجولة . . . وسعيت ببطء قاتل نحو منزلي لأخبر زوجتي المسكينة بهذا الخبر الفظيع . . .

وقضينا مدة طويلة في ترتيب المستقبل الصالح لبيتر العزيز . . . وكانت النقود التي ادخرناها طيلة

هذه المدة كافية بأن تبلغ بولدنا المكانة التي تصبو إليها نفسه . . .

وفي الصباح سألني بيتر . . . لماذا لم أذهب إلى المصنع كالعادة ؟ فأجبته بأن خلافاً بسيطاً حدث بيني وبين المستر دافيد استقلت على أثره من وظيفتي .

لم يصدقني ولدى فكرر السؤال على مارى فأجابته نفس الاجابة بدون اكتراث . . . ثم ابتسمت فابتسم بيتر وقال :

— إذا كنتما أنتما أصحاب الشأن لا تهتمان فلماذا أهتم أنا ؟ . . . إنني أستطيع أن أرى أديث الآن . . . إذا أردت . . .

— لا يابيتر . . . لن تراها . . . ! إن الرجل لا يخيس بوعده . .

— كما تريد يا أبي . . . لن أراها . . .

ثم خرج بعد أن شملنا بنظرة حنون ملأت قلبينا راحة وسكينة وجعلتنا نثق بالمستقبل الذي كان منذ لحظة مظلماً كريهاً

وبعد خروجه استطاعت مارى أن تقنعني أن تحل بيتر من وعد لا مبرر له الآن فقد امتنع عن رؤية أديث لأنك كنت موظفاً عند والدها، ولكنك الآن حر طليق ، فمن الحرام أن يتقيد شاب في مثل سنه بقيد ثقيل على قلبه الشاب . . . ثم اتفقنا على إخباره بذلك القرار عند رجوعه

ولكن ... ولكن ما كاد بيتر يلج باب المنزل في عصر هذا اليوم . . . ولم يكد يطالعنا بوجهه المنقبض الحزين وعينيه الباكيتين الشاكيتين حتى أدركنا أن هنالك أمراً محزناً قد وقع لولدنا الحبيب .

نهضت الأم الحنون مهرولة إلى غرفة ولدها ، ولما رجعت بعد نصف ساعة رأيت جفنيها مخضلتين بالدموع

— لقد لقي بيتر أديث في الطريق ولما لم يكلمها كما وعدنا . . . أسمعته كلاماً جارحاً وقالت له إن حبه لم يعد يساوي شيئاً لديها . . .

فأجبتها باستغراب :

— لقد تحدثا عن الحب ؟ . . !

— أجل .. لقد بكى المسكين في أحضاني .. وإنها لأول مرة أراه فيها يبكي منذ سنين ... لقد بكى لأن الفتاة احتقرته وآلمته ... ولذلك أخبرته أنه في حل من وعده ... وله أن يقابلها في الغد ويشرح لها كل شيء ... ولكنه رفض ...

لم أجد شيئاً أقوله في هذا الوقت ، ولكن مارى استطردت تقول بصوتها الحزين :

— لابد أن يكون دافيد فوستر مستريحاً الآن ... لقد حقق الشقي غرضه على أنقاض ذينك القلبين الشابين ... وسيذهب بيتر إلى كلية الطب واللوعة ترافقه لأن الفتاة التي أحبها احتقرته ... وكم كنت أتمنى من صميم قلبي أن ترافق بيتر في سفره ذكرياته العزيزة وحبه الطاهر الشريف ليقابل حياة الاغتراب بقلب محصن ونفس جزلة ...

ثم قالت أخيراً بصوت منكسر :

— قد يظن المسكين أننا حرمناه متعة الحب فيرمينا بالقسوة

فأجبتها بلهفة وحزن :

— ألا يمكن يا مارى أن تخبري أديث بالحقيقة

حتى تتصافى القلوب وترجع المياه إلى مجاريها

— لقد فات الوقت ... وأريد الآن أن نفكر في مستقبله لا فى حبه ..

وفى الغد رأيت بيتر شاحب الوجه ... ذابل العينين ... حزين النفس من جراء ما قاساه البارحة فظل طيلة اليوم مفكراً صامتاً ...

* * *

ومرت السنون متتابعة متشابهة ... نال بيتر في خلالها أجازة الطب ... وأنا لم أرجع إلى مصنعى القديم ، ودافيد فوستر لم يسأل عنى وكأنه لم يعرفنى

لقد قسيت كثيراً فى بادئ الأمر حتى التحقت بمصنع للأثاث ... وكان مرتبى ضئيلا إذا قورن بذلك المرتب الذى كنت أتقاضاه من مصنعى القديم .. ولكنى استطعت أن أعيش به مستريحاً قانعاً حراً بعيداً عن سطوة ذلك الرجل الكريه ... فتعلم ابنى كما أراد وحقق آماله وآمالنا ...

وبينما كان بيتر يسعى فى تلك السنين نحو المجد والنجاح ... كانت رفيقة صباه أديث تسعى نحو الزهو واللهو ... فاندمجت فى حياة صاخبة ماجنة ...

كانت لا تذهب إلى الكنيسة ... لأنه من العسير أن توفق فتاة لعوب بين رغبات الجسد الجامحة ... ونداءات النفس الصالحة ... لقد هجرها بيتر ومضى يسعى لمستقبله ومجده يقوده صوت الضمير اليقظان فراحت تثأر لحبها وتنتقم لنفسها من ظلم القسوة القاهرة . . . فكرهت والدها وأصبحت لا تكلمه إلا قليلا

وبعد مضى ست سنوات أقبل اليوم الذي ضحيت من أجله ما ضحيت . واحتملت فى سبيله ما احتملت ... اليوم الذى ذهبت فيه إلى المحطة لأستقبل بيتر العزيز يحمل لقبه الساحر « دكتور »

وقد استقر رأينا على أن يلتحق بيتر بمستشفى فى الجنوب ليكتمل تمرينه ، فى عصر يوم أقبل الدكتور كرولي طبيب العائلة وقال إنه يود أن يلحق بيتر بمستشفى مدينتنا الذى بناه والد دافيد منذ زمن بعيد ... وفيه ثلاثة أطباء حطمتهم السن العالية ولا يقوون على مشاق السفر ليلا لإسعاف المرضى ... حينئذ قالت ماري وبريق الاعجاب والزهو يشع من عينيها :

— إنى أريدك بجانبي يا بيتر العزيز ...

فأجابها بصوت منخفض حنون :

— سأبقى بجانبك يا أماه .. سأعمل بالمستشفى .

وفى خلال سنة اشتهر الدكتور بيتر شهرة مستفيضة . . وأصبح طبيب جميع العائلات المحترمة في المدينة وخاصة فى الحالات الخطيرة المستعصية .

ومما هو جدير بالذكر أن بيتر لم يحادث أديث فى خلال السنتين اللتين قضاهما فى المستشفى كما أنه لم يذكر اسمها أمامه إلا مرتين ... وفى كل مرة كانت تغشى عينيه سحابة من الحزن الدفين . وأظنه كان عالماً أنها سافرت منذ أن حل بالمدينة فى رحلة طويلة لتكون بعيدة عنه . . . وكان أبواها هما اللذين دبرا ذلك . . .

* * *

لا أدرى أية دهشة استولت علينا أنا وماري فى عصر ذلك اليوم الجميل من أيام الربيع الحادثة حينما دخل علينا المنزل دافيد فوستر وهو يبتسم ابتسامته البغضية القاتلة ... ويقول من غير مقدمة :

وسعادة الحياة ... ثم تريدني الآن على أن أنقذ اسم ابنتك وسمعة أسرتك ..؟ كلا ... فلن يدنس ولدى مهنته الشريفة ...

عند ذلك قام كنمر مفترس محبوس فى قفص ضيق مربع ، ثم واجهنى واقتربت عيناه من عينى وراح يحملق فيهما بشراهة غريبة ثم قال :

— هل تعنى ماذا يعنى رفضك هذا ... ؟ أإذا أعدتك إلى وظيفتك تحمل ولدك على أداء ما طلبته منك ؟ ...

— كلا ... وإن ما يدهشني الآن أنك أتيت إلى أنا ... لماذا لم تذهب إلى طبيب آخر ...

— لقد ظننت أننى أجد المساعدة منك أنت

— إنك لا تقدر خطورة سؤالك هذا ... إنك تريد أن تجعل ولدى يدنس شرف مهنته ... إن الأطباء لم يخلقوا ليحطموا الحياة بل لينقذوها

عند ذلك دنا الرجل منى حتى التصق بى ونظر إلى نظرة ذليلة ثم قال :

— أنسيت ما صنعه أبى لك ..؟ ربما أكون قد عاملتك بقسوة وها أنذا أعترف بأننى كنت مخطئا وقاسياً ، ولكن أبى قد استخدمك صبياً وصادفك رجلا فاستطعت بفضل معونته ومحبته أن تشترى منزلك الذى تسكنه ... وتعلم ابنك المهنة التى أرادها هل نسيت هذا ؟ ... هل أستطيع ياسيدى أن أتقدم اليك بطلبي باسم تلك الذكريات العزيزة التى ربطتك بوالدى برباط مقدس جليل ... ماذا كان لك أبى ؟ وماذا فعلت من أجله ... ؟

ونظرت إليه بصمت حزين ... ثم قلت بصوت منخفض تشوبه ارتعاشة خفيفة :

— إننى أقدس هذه الذكريات يادافيد فوستر ... وإنى لمستعد أن أساعدك فى كل عمل شريف ولكنك تطلب منى أن أمالئك على عمل دنىء

فقال بعد أن رمانى بنظرة ذليلة كسيرة :

— سأذهب إلى ابنك نفسه وأقدم إليه أجراً يكفيه أكثر حياته ...

— تستطيع أن تجده ياسيدى في المستشفى

وفجأة دق جرس التلفون فتناولت السماعة وإذا بصوت بيتر يصل إلىّ من خلال الأسلاك الدقيقة متهدجاً ... مضطرباً :

— هالو . . . بابا . . . إننى أعتذر عن العشاء فى هذا المساء لأنى ذاهب إلى منزل دافيد فوستر فان ابنته إديث على وشك أن تموت

وسمعت ولدى يضع السماعة ولكنى لم أجد القوة لأضعها ... وكان دافيد فوستر يمشى فى الغرفة بخطوات بطيئة تعبة منكساً رأسه فى حزن عميق فناديته . . .

— دافيد . . . دافيد فوستر . . . انتظر . . . انتظر دقيقة . . .

التفت المسكين بسرعة ونظر إلى نظرة متسائلة .. متوسلة . . . فشعرت في هذه اللحظة أن الرجل قد تحطمت كبرياؤه وتقطع قلبه وتقدم عشرين سنة فبدا شيخاً حزيناً ذليلا . . . وأمام هذا المنظر وهذه الشيخوخة التعسة . . . تندت عيناى بالدموع ثم قلت :

— لقد قال لى ولدى الآن أن زوجتك استدعته بالتلفون فأجابني باكياً :

— استدعى إلى منزلى . . . آه . . . ألم تمت

إديث ؟ . . أخبرنى . . . لقد قالت إنها ستنتحر . . . أخبرنى بربك . . . أخبرنى . . .

فأجبته ببطء :

— لا أعرف سوى أن بيتر فى طريقه إلى منزلكم . . .

عند ذلك تطرح المسكين على مقعد بجانبه ثم راح يتمتم فى همس حزين :

— ابنتى الصغيرة . . . ابنتى الصغيرة . . . لقد عزمت على أن تفارقنا للأبد . . . للأبد . . .

— دعنى أوصلك إلى منزلك ... ربما تكون فى حالة خير مما تظن . . . إن كان هناك أمل فى شفائها فبيتر سينقذها حتما . . .

فأجابنى كرجل نائم تحت تأثير حلم هائل :

— سينقذها بيتر . . .

وقد ساعدته على النزول وأركبته العربة . . . وفي أثناء الطريق راح يتمتم فى حشرجة مخيفة . . .

« سينقذها بيتر »

وعند ما بلغنا المنزل . . . شعرنا بجو من الكآبة يكاد يخنقنا . . . شعور مبهم لاندري كنهه ولكنه تحقق حين رأينا الخدم واقفين بوجوم وحزن . . . بعضهم ذاهل وبعضهم يبكى

لا أدرى كيف قدت الرجل المحطم إلى داخل منزله . . ؟ ولكنى أفقت حينما رأيت زوجته جالسة كحيوان عاجز كسير حرم أطفاله قسراً . . . ولكنها حين رأتنا وقفت بكبرياء عجيبة . . . وكجندى فى ميدان الحرب لايجد بداً من إبداء شجاعته وإلا هلك ، وقفت تواجهنا بوجهها الأصفر الهزيل وعينيها الباكيتين . . . عند ذلك همس دافيد فوستر بصوت مبحوح كصوت نصل حاد يجري على شيء صلب قاس:

— إديث . . . إديث

فأجابته المرأة الشجاعة بصوت أرادت أن تجعله قويا حاسما فكانت منها كذبة هائلة لأنها لم تستطع المقاومة فقالت :

— لقد ... ماتت ابنتك منذ ساعة كما قال بيتر ... لقد انتحرت

عندئذ نظر إليها زوجها ببلادة وبلاهة كمن لا يدرك حقيقة موقفه وقال :

— ماتت ؟ كيف .. ؟ أريد أن أراها ... أريد أن أرى ابنتى الصغيرة العزيزة ، أريد . . .

فأجابته زوجته بحنان :

— نستطيع أن نراها بعد برهة قصيرة يادافيد . إن بيتر معها في الغرفة ... لقد ماتت وصورته لاصقة بصدرها ...

— أجل ... بيتر هيبرن ... لقد ذهبت إديث بحبه إلى السماء ...

ما هذا ... ما هذا الشقاء الذى حاق بهذين الرأسين الأشيبين ؟ لقد شعرت بالدموع تنهمر على خدى فرأيت من خلالها دافيد فوستر يقف ذاهلا كرجل ضعيف تحت تأثير منوم مغناطيسى... حينئذ قالت الأم الحزينة :

— يجب أن ندع بيتر يتناول حبيبته الصغيرة الميتة بين ذراعيه برهة قصيرة ...

فانفجر دافيد من الحزن والحنق وأراد أن يقول شيئاً ولكن زوجته أسكتته بنظرة صارمة حازمة ثم قالت :

— إن الله معهما الآن يا دافيد ... وسيعلم بيتر أن ابنتي قد أحبته ... وأن روحها نقية طاهرة .. لأنها أحبته ...

وجلس دافيد فوستر بجانب الأم الحزينة وأسند رأسه فوق صدرها كطفل تعب متهدم ينشد الراحة بين أحضان أمه الحنون ، ثم دفن وجهه في صدرها وراح يهتز كريشة في مهب الرياح ... ثم بكى ...

وفي هذه اللحظة خرج بيتر من الحجرة أصفر الوجه ، ساهم العينين ، غائب الحواس ، كأنه إنسان صناعي يسير بقوة أجنبية عنه ... ودون أن يدري تقدم نحو السيدة فوستر ففتحت المسكينة له ذراعيها فستقر بينهما ... وهو يهمس بصوت أبح :

— أشكر لك يا سيدتي عطفك عليّ هذه الليلة..

فأجابته المسكينة :

— تبارك الله يا ولدي العزيز ...

كنت أود أن أحباك كولدي ... كنت أود..

فلم أقو على احتمال هذا المنظر ولا على سماع هذا الكلام ، فخرجت وكأنني أخرج من قبر مظلم ، ثم لحق بي بيتر وقال وهو يبتسم ابتسامة باكية متجلدة :

— سأذهب للمستشفى الآن.. وسألحق بك إلى المنزل ... إلى اللقاء يا والدي ...

***

ودار الفلك دورته المنتظمة المتعاقبة وما زال ولدي في المستشفى لا يبرحه

وقد خيط في رأسه الشيب ولم يتجاوز الخامسة والثلاثين من عمره .. وقلما تجده مشغولا بغير مهنته..

ويستطيع كل زائر أن يرى سيدة جميلة وقورة تزور المستشفى كل يوم ترجو من الدكتور بيتر أن يقول لها إذا كان في الناس من يحتاج الشيء ... أم شابة تحتاج إلى مال أو ملابس ... روح معذبة مظلومة تنشد الراحة والهناء ... كذلك كان زوج هذه السيدة قد اعتزل العالم وأصبح زاهداً فيه ... يتردد بين عمله ومنزله ... وقد عرف أخيراً أنه هو المحسن العظيم الذي بنى جناحاً آخر للمستشفى وأنه الكريم الذي لا يرد سائلا ، ولا يخيب راجياً ... يساعد اليتيم ، وينصف المظلوم ، ويعاون الأرامل على العيش ، ويساعد الفقراء على الزواج

يرجو بذلك أن يكفر عن ذنب اقترفه .. إذ سلب ابنته الحب والحياة ... وسلب ابنى الراحة والسعادة

يريد أن يكفر ... أجل يكفر ... ليبلغ سلام النفس وما هو ببالغه

رباه : في أي حال نحن أسعد . . ؟

أفي الحب ؟ . . . أم في الاحسان ؟ . . . أم في الموت ؟ . . .

أميل فرج

رفائيـــــل

لشاعر الحب والجمال لامرتين

مترجمة بقـــلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

الثمن ١٢ قرشاً